# حوليـــــات

# جـــامعة الجـــزائر

العدد 24-الجزء 01
جويلية 2013

# التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية.

**د/ حورية عبيب**
**أستاذة محاضرة**
**كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر1**

---

**مقدمة:**

اللغة ظاهرة اجتماعية لا يمكن النظر إليها أو دراستها بمعزل عن محيطها الاجتماعي والثقافي، وهي من أكثر الظواهر التصاقا بحياة الأفراد تخضع لمقاييس المجتمع وأعرافه وتقاليده ومستوياته الثقافية والمعرفية والحضارية، فلا يمكن– مثلا– أن ندرك حياة العرب ومعيشتهم في عصر ما قبل الإسلام إلا إذا نظرنا في لغة العرب آنذاك نظرة فاحصة من حيث دلالات الألفاظ وتقلبها أو ثباتها، وما تدّل عليه كلّ كلمة منها في نظام حياتي عربي قديم بعينه، ويكفي أن نقف عند قوله تعالى: چ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا ى ى حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (المائدة:103). لِنتَبَيَّنَ بعض عادات العرب القديمة وتصوراتهم ومواقفهم من بعض ما يحيط بهم.

لقد قامت اللغة العربية بدورها في التعبير عن واقع العرب بصورة تؤكد اختلاطها بالمجتمع العربي وبالتاريخ الحضاري والثقافي والديني للعرب، هذه اللغة التي شرّفها الله تعالى بجعلها لغة القرآن الكريم، قال الله تعالى:

–چ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ٱلسَّمَٰوَٰتِ (يوسف:2).

– چ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الشعراء: 195).

- چ پ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (النحل:103)

- چ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَأَعۡجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ٱلسَّمَوَٰتِ ( فصلت:44).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدل على أن القرآن الكريم عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان المعجم، فمَن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة.

وإذا قلنا إنّ القرآن الكريم أنزل بلسان العرب، وإنه عربي فبمعنى إنه أنزل على لسان معهود للعرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، ولو كان له فَهْم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق.

وإنّ شمولية الدين الإسلامي بوصفه ديناً سماوياً لكل البشر قد هيأ تعددًا في بعض قراءاته، يقرّر هذا قول الرسول ﷺ: " أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرآوا ما تيسر منه"[1].

يؤكد هذا الحديث وجود لهجات عربية كثيرة بإزاء لهجة قريش منها لهجات هذيل وتميم وقيس وأسد وطيّء وهوازن وغيرها، وهنا تظهر حقيقة في غاية الأهمية وهي أنّ القراءات القرآنية انعكاس لتعدّد البيئات اللغوية الاجتماعية عند العرب الذين كانوا على لهجات لغوية مختلفة، وكان من الطبيعي ألا يغفل هذا التعدّد اللغوي الاجتماعي عملية التواصل، والاتصال بالنص القرآني وإشاعته بين الناس على امتداد المكان والزمان، ومن ثمَّ فهم دلالاته ومعانيه، وهذا الاتصال محكوم بالبيئة اللغوية الاجتماعية حتما.

ويرجع سبب هذا الاختلاف في القراءة إلى أن اللسان العربي يتضمن لهجات متعددة ومتباينة في بعض مظاهر الصوت والدلالة والقواعد

والمفردات، وقد دعت إلى هذا التباين أسباب لعلّ من أهمّها أنّ أعضاء النّطق تختلف في بنيتها واستعدادها ومنهج تطوّرها تبعاً لتنوع الخواص المزوّد بها كلّ شعب، والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف، وبالضرورة وبإزاء هذه الأسباب القوية ليس يسهل على كلّ واحد أن يستبدل لهجة جديدة بلهجة أخرى[2].

وقد تنبه ابن قتيبة إلى أنّ اختلاف لهجات العرب سبب لاختلاف قراءاتهم، وأن القراءات القرآنية قضية من قضايا التيسير التي خصت بها الأمة الإسلامية، وهذا واضح في قوله:" ولو أنّ كلّ فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا لاشتدّ ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكّنه إلاّ بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل للسان وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متّسعا في اللغات ومتصرفا في الحركات كتيسيره عليهم في الدين حين أجاز لهم على لسان رسول الله ﷺ أن يأخذوا باختلاف العلماء من صحابته في فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجّهم وطلاقهم وعتقهم وسائر أمور دينهم"[3].

أشار ابن قتيبة في نصه هذا إلى المبدأ العام الذي خصّت به الشريعة الإسلامية، وهو اليسر ودفع المشقة حيثما وجدت، فلا تخلو فريضة من فرائض الشريعة الإسلامية من رخص أو أكثر، ففي تناول الطعام المحرّم رخص، وفي الصلاة رخص، وفي الصّوم رخص، وفي الحجّ رخص إلى غير ذلك من ضروب اليسر التي حفلت بها كتب الفقه، فمن الحكمة الإلاهية أن يطرد هذا المبدأ في كل أمر تكليفي فيه مشقة متيقنة أو محتملة[4].

وأكد هذا المعنى ابن الجزري قائلا:" وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتّى يعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى

غيرها أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعلم والعلاج لا سيما المرأة ومَن لم يقرأ كتابا"[5].

إنّ الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن الكريم هي تيسير على الأمة الإسلامية وسعة لها، وهذا مادلّت عليه الأخبار الواردة في هذا المعنى والتي تواتر نقلها عن رسول الله ﷺ.

وإن اللغة القرشية لم تكن هي اللغة الوحيدة التي نزل القرآن الكريم بها، وإنما هناك لهجات بجانبها قرأ بها رسول الله ﷺ، والحكمة الربانية التي اقتضت تعدد القراءات هي مراعاة الجانب الاجتماعي لأفراد القبائل التي تلقت القرآن الكريم مشافهة، وإني أرى في توجيهات بعض علمائنا القدامى للقراءات القرآنية ومحاولة توضيحًا وبيانها وردّها إلى وجه من وجوه العربية – سواء على المستوى الصوتي أم الصرفي أم التركيبي أم المعجمي الدلالي– ملمحاً من ملامح الدرس اللغوي الاجتماعي، فكثيراً ما نجد لبعض العلماء ركونا واستعانة بلهجات العرب وما دأبت عليه ألسنتهم في القول والكلام من عادات ونظم، يضاف إلى ذلك إستناد بعضهم إلى الشعر العربي– وهو نتاج ثقافي اجتماعي– في توجيه بعض القراءات على وفق أساليب العرب في نظم الشعر وقوله.

وتكمن في القراءات القرآنية على المستوى الصوتي ظواهر وقضايا صوتية كثيرة تختلف من قراءة قرآنية إلى قراءة أخرى.

ومن الثابت أن أغلب الاختلافات ما بين القراءات القرآنية تخص المستوى الصوتي للغة، وفي ذلك تتجلى الحكمة في نزول القرآن الكريم على أكثر من حرف، من هذه الظواهر الصوتية إبدال صوت من أصوات الكلمة بصوت آخر، "من ذلك قوله تعالى: چ گ گ گ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ

فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا (الإسراء:5)، فقد قرأ أبو السَّمَّال "فحاسوا" بالحاء، قال أبو الفتح: قال أبو زيد، أو غيره: قلت له إنما هو "فجاسوا"، فقال: حاسوا و"جاسُوا" واحد [6]"، ومن ذلك ما رواه الأعمش قال: سمعنا أنسا [7] يقرأ:" لَوَلَّوا إليه وهم يَجْمِزُون"[8]، قيل له: وما يجمزون؟ إنما هي يجمحون، فقال: يجمحون ويجمزون ويشتدون واحد، قال أبو الفتح: ظاهر هذا أنّ السلف كانوا يقرأون الحرف مكان نظيره من غير أن تتقدم القراءة بذلك، لكنه لموافقة صاحبه في المعنى، وهذا موضع يجد الطاعن به إذا كان هكذا على القراءة مطعنا، فيقول: ليست هذه الحروف كلها عن النبيﷺ، ولو كانت عنه لما ساغ إبدال لفظ مكان لفظ إذ لم يثبت التخيير في ذلك عنه، ولمَا أنكر أيضا عليه (يجمزون)، إلا أن حسن الظن بأنس يدعو إلى اعتقاد تقدم القراءة بهذه الأحرف الثلاثة التي هي:(يجمحون) و(يجمزون) و( يشتدون)، فيقول: اقرأ بأيّها شئت، فجميعا قراءة مسموعة عن النبي ﷺ، لقوله عليه السلام: نزل القرآن بسبعة أحرف كلّها شاف كاف، فإن قيل: لو كانت هذه الأحرف مقروءا بجميعها لكان النقل بذلك قد وصل إلينا، قيل: أولا يكفيك أنس موصّلا لها إلينا؟ فإن قيل: إنّ أنسا لم يحكها قراءة وإنما جمع بينها في المعنى، واعتل في جواز القراءة بذلك، لا بأنه رواه قراءة متقدمة، قيل: قد سبق من ذكر حسن الظن ما هو جواب عن هذا[9].

ومن ذلك قوله تعالى: چ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ (البقرة:259)، إذ قرأ زيد بن ثابت (ننشرها) بالزّاي وضمّ النون، والإنشاز نقلها إلى موضعها، وقرأها ابن عباس(نُنشِزها) بالراء وضم النون [10]، وإنشارها هو إحياؤها، واحتج بقوله تعالى: چ ثُمَّ إِذَا شَآءَ

أَنشَرَهُۥٓ ٱلسَّمَوَٰتِ (عبس:22)، وقرأ الحسن(ننشرها) بالراء وفتح النون، ذهب إلى النشر والطّي، والوجه أن تقول: أنشر الله الموتى إذا حيوا كما قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا  يا عجبا للميت الناشر

وسمعت بعض بني الحارث يقول: كان به جرب فنشر، أي: عاد وحيي[11].

ومنه قوله تعالى: چ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ٱلسَّمَوَٰتِ (التكوير:24) فقد قرأ ابن كثير وأبو عمر والكساتي (بظنين) بالظاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة (بضنين) بالضاء [12].

فـ(ظنين) بالظاء معناه (متّهم) وبالضاد بمعنى (بخيل)، ويقال ما هو على الغيب بظنين ( بالظاء) بضعيف، والعرب تقول للرجل الضعيف أي الشيء القليل: هو ظنون، ويقول بعض بني قضاعة: ربما ذلك على الرأي الظنون، يريد الضعيف من الرجال، فإن يكن معنى ظنين ضعيفا، فهو كما قيل: ماء شريب وشروب [13].

ومنه التغيّر الصوتي الذي يطرأ على بعض الحركات التي على حروف الكلمة مما هو خارج عن دائرة الإعراب كقوله تعالى: چ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ٱلسَّمَوَٰتِ(يس:9)، فقد قرأ حمزة والكساتي وحفص عن عاصم:"سدًّا ومن خلفهم سدًّا" مفتوحتي السين، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم(سُدًا ومن خلفهم سُدًا) مضمومتي السين[14].

حكى الزجاج أنه ما كان مسدودا خلقه، فهو: سُدّ (بالضم)، وما كان من عمل الناس، فهو سَدّ ( بالفتح)، وعلى ذلك وجهنا قراءة من قرأ بين السُّدين والسَّدين، والسد مصدر قولك سددت الشيء سدًّا، والسَّد والسُّدُ: الجبل والحاجز، وقرئ قوله تعالى: چ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الكهف:93)، بالفتح والضم، وروي عن أبي عبيدة أنه قال: بين السُّدين، مضموم، إذا جعلوه مخلوقا من فعل الله، وإن كان من فعل الآدميين، فهو سدّ بالفتح، ونحو ذلك قال الأخفش[15].

ونجد مادة صرفية غزيرة أيضا في القراءات القرآنية، وقد تعددت الأوجه الصرفية منها ما يخص التذكير والتأنيث كما في قوله تعالى: چ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الأنعام:55).

ذكر ابن مجاهد انه قرأ نافع "ولتستبين" بتاء الخطاب، و" سبيل" بالنصب وأنه قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص "ولِتَسْتَبِين" بالتاء على التأنيث و"سبيل" بالرفع، وأنّه قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكساتي لِيَسْتَبِين) بالياء، و"سبيل" رفعا[16].

وعلى هذا، فنصب كلمة "سبيل"، و "لتستبين" بتاء الخطاب قراءة نافع على جعل الفعل خطابا للنبي ﷺ، بمعنى: لِتَستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، فالفاعل ضمير مستتر في الفعل، ونصب السبيل بتعدي الفعل إليها[17].

أما قراءة الآخرين "ولتستبين" بتاء التأنيث و" سبيل" رفعا، فعلى أنهم جعلوا الفعل " للسبيل" فرفعوها بالحديث عنها، فكانت التاء علامة تأنيث و لا ضمير في الفعل، واعتبروا "السبيل" مؤنثة [18] كما قال تعالى: چ قُلۡ هَٰذِهِۦ

سَبِيلِيٓ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (يوسف:108)، وقوله عزوجل: چ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الأعراف:45)، ومعنى الكلام عندهم: وكذلك نفصل الآيات ولتتضح لك وللمؤمنين سبيل المجرمين[19].

وأما قراءة عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي "ولِيستبين" بالياء،"وسبيل" رفعا –كما سبق بيانه–فعلى أنهم جعلوا الفعل للسبيل وذكروا" السبيل"، لأنه يذكر ويؤنث، ورفعوه بفعله[20]. كما قال تعالى: چ يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ ژ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاٱلسَّمَٰوَٰتِ (الأعراف 146)، فذكر" السبيل"، وإنّ معنى هؤلاء في الكلام، ومعنى من قرأ ذلك بالتاء في " ولتستبين" ورفع " السبيل" واحد، وإنما الاختلاف بينهم في تذكير" السبيل" وتأنيثها، لأن من العرب من يذكر " السبيل"– وهي تميم وأهل نجد– ومنهم من يؤنث " السبيل"– وهم أهل الحجاز [21]، وبيّن الطبري أن قراءة " ولتستبين" بالتاء أو بالياء هما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار، ولغتان مشهورتان من لغات العرب [21] وذهب أبو جعفر النحاس إلى أنّ تأنيث السبيل أكثر [22].

وإن الفعل " استبان" يستعمل لازما ومتعديا، يقال: استبان الأمر، ونبين واستبنته وتبيّنته[23].

إنّ الاختلاف في وجوه القراءة خاصة ما يتعلق منها بعلم الأصوات موغل في القدم –كما ذكر عفيف دمشقية–[24] حتى يصل إلى عهد النبي ﷺ.

وإنّ النصوص التي تذكر كيفية قراءة الصحابة للقرآن الكريم واختلافهم في تلاوته في بعض الأوجه وأن الرسولﷺ كان يجيز تلك الاختلافات قائلا: هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، لا تبين بجلاء إذا ما كانت هناك فروق إعرابية يرجع عهدها أو زمنها إلى الأيام التي بدأ فيها الاختلاف في وجوه القراءة، والنص الذي يبرز الاختلاف النحوي هو

نص ابن قتيبة في وجوه الخلاف في القراءة، يقول ابن قتيبة في هذا الشـــأن." وتدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعة أوجه:

**الوجه الأول:** الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بنائهـــا بمـــا يزيلها عن صورتها في الكتاب، ولا يغير معناها نحو قوله تعـــالى: چ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ (هـــــــود:78)، وچ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (سبأ:17)،" وهل يُجازى إلاَّ الكفوُر".

**الوجه الثاني:** أن يكون الاختلاف في الإعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو: چ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ (سبأ:19) و "ربُّنَا بَاعَدَ بَيْن أسفارنا".

**الوجه الثالث:** أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو قوله تعـــالى: چ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَاٱلسَّمَٰوَٰتِ (البقرة:259)، وننشزها.

**الوجه الرابع:** أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغيّر صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها نحو قوله تعالى: چ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً ٱلسَّمَٰوَٰتِ (يس: 29)، وزقية.

**الوجه الخامس:** أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيـــل صـــورتها ومعناها نحو قوله تعالى:"وطلع منضود" في موضـــع چ وَطَلۡحٖ ک ک ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الواقعة:29).

**الوجه السادس:** أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قولـــه: چ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ چ (ق:19) في موضع:وجَـــاءَتْ ســـكرةُ الحَقّ".

**الوجه السابع:** أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصـــان نحـــو قولـــه تعالى:" وَمَا عَمِلَتۡ أيـــديهم"، چ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ چ(يـــس:35) چ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ چ (لقمان 26) و" إنَّ الله الغَنِيُّ الحميد"...[25]

غير أن هذا النص لا يوضح الأمر، لأن ابن قتيبة من علماء القـــرن الثالث الهجري (276هـــ)، وهو الزمن الذي كانـــت فيـــه الحركـــة اللغويـــة والنحوية قد قطعت شوطا بعيدا يعتمد في الكشف عن وجوه الاختلاف علـــى الرسم الإملائي في المصاحف قبل كل شيء[26].

كما أن الوجه الأول من وجوه الخلاف في القراءات التي بينهـــا ابـــن قتيبة وبالتحديد الخلاف الإعرابي الذي ذكره في رفع كلمة " أطهر" ونصـــبها في قوله تعالى: چ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ چ (هود 78) يرجـــع تاريخه إلى عهد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي المتوفى سنة ( 117هـــ) (وهو أحد القراء العشرة) والذي يعتبر بحق أحد مؤسسي مدرســـة البصـــرة النحوية، والنحو في هذا العصر قد بدأ يتسم بطابع العقلانية ويـــدخل مرحلـــة طرح المعضلات النحوية ومناقشتها ومحاولة تحليلها، وهذا لا يســـاعد علـــى معرفة إذا وجدت فوارق إعرابية في الأزمنة السابقة على هذه المرحلـــة مـــن مراحل علم النحو[27].

غير أنّ ابن الجزري قد بيّن أنّ كثرة الاختلاف فـــي القـــراءة وقلـــة الضبط دفع بالعلماء إلى وضع أصولا وقواعد تميز بها القراءة المشهورة من

القراءة الشاذة، ومن تلك الأصول أن توافق القراءة وجها من وجوه النحو[28]، ومعنى هذا أن النحو والاختلاف في الإعراب لاحق في الزمن لا سابق على القرآن الكريم، وهذا ما دفع بعض الباحثين [29] إلى القول بأن الإعراب لم يكن أحد الأوجه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم والتي جاء ذكرها في الحديث الشريف، لأن إنزال القرآن الكريم على هذه الأحرف كان رحمة ويُسْرًا وتوسعة على الأمة الإسلامية، وإنّ الإعراب ليس مما يَعجز عنه عربي أيًّا كانت قبيلته ولهجته، وإنّ هذه التوسعة تشمل النواحي الصوتية من إمالة وهمز ومدّ وغيرها من القضايا التي لها علاقة بعلم الأصوات.

إنّ الأنسب في هذا المقام تأكيد القول بنفي وجود أدلة قاطعة ووقائع تاريخية ملموسة تثبت حصول اختلاف الناس أو الصحابة ن في قراءة القرآن الكريم من الناحية الإعرابية في عهد الرسول ﷺ لا الذهاب إلى تفنيد قول الجمهور بأنّ الإعراب من الأوجه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم، هذا الوجه الذي ركّز عليه ابن قتيبة في نصّه السابق ذكره بل لم يذكر ابن قتيبة الجانب الصوتي من بين الأوجه السبعة التي ساقها وهو يشرح معنى الأحرف السبعة، يقول ابن الجزري في هذا السياق:" ثم وقفت على كلام ابن قتيبة وقد حاول ما حاولنا بنحو آخر....على أنه قد فاته كما فات غيره أكثر أصول القراءات كالإدغام والإظهار والإخفاء والإمالة والتفخيم وبَين بَين والمدّ والقصر وبعض أحكام الهمز كذلك الروم والإشمام على اختلاف أنواعه وكلّ ذلك من اختلاف القراءات وتغاير الألفاظ مما اختلف فيه أئمة القّراء...."[30].

وإذا فات ابن قتيبة الجانب الصوتي للقراءات وغفل عنه، فإنّه لم ينفه، لأنّ النواحي الصوتية التي تكّون العادات الكلامية هي التي تثبت عليها القبائل العربية وهي التي يجد العربّي في العدول عنها عجزا وصعوبة ومشقة.

وإذا كان المستوى الصوتي هو أكثر أصول القراءات وأبرزها، فهذا لا ينفي الوجوه الأخرى التي ذكرها العلماء منها الوجه النحوي.

فمثلما اختلف علماء القراءات في تأدية بعض آيات الذكر الحكيم على المستويين الصوتي والصرفي اختلفوا في تأدية بعضها على المستوى النحوي.

وإنّ أكثر هذا الاختلاف النّحوي في أداء بعض القراءات القرآنية هو في الأساس انعكاس لانقسام اللغة العربية إلى لهجات على المستوى النحوي مما تمخّض عنه اختلاف في توجيه تلك القراءات نحويًّا، ومن ثم اختلاف في الدلالات المستفادة من كل قراءة على أوجه متعدّدة كثيرا ما تشخص الملامح الاجتماعية والثقافية بوصفها عاملاً فاعلاً في القول بهذه الدلالة أو تلك، فالاختلاف النحوي الدلالي نتاج اختلاف اجتماعي ثقافي تدفع إليه رؤى ومفاهيم لغوية اجتماعية وثقافية ملحوظة في أغلب الأحيان.

ولقد كانت الحركات الإعرابية التي تتوارد على أواخر الكلمات وهي منتظمة في تركيب ما من أبرز الأوجه الخلافية على المستوى النحوي للقراءات القرآنية، والحركات الإعرابية كما هو معروف من أبرز القرائن المعنوية في اللغة العربية، ولهذا سنتناول بعضا من هذه القراءات القرآنية بالدراسة والتحليل للكشف عن دور العامل الاجتماعي والثقافي في اختلاف القراءات نحويا من جهة، وفي إختلاف العلماء في تفسير هذا الاختلاف وتأويله وتخريجه وتوضيح دلالته المستفادة.

* قال الله تعالى: چ پ ﴿ ﴾ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الفاتحة:2)، قرأ القراء وعلماء الأمة كلمة ( الحمد) رفعاً [31] على الابتداء [32]، وتأويلها أنّ جميع المحامد لله بألوهيته وإنعامه على خلقه بالنّعم التي لا كِفاء لها في الدين والدنيا والعاجل والآجل، ولذلك من المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة على رفع " الحمد"[33].

وقرأ هارون العتكي ورؤية بن الحجاج وسفيان بن عيينة " الحمد" نصبا[34]، وذهب سيبويه إلى أنّ من العرب مَن ينصب بالألف واللام فيقول: الحمدَ لله، ثم بين أنهم بنو تميم وناس من العرب كثير [35].

ووجه النصب في هذه القراءة هو على المصدرية- أو المفعولية المطلقة- وذلك أن أصل الكلام: حَمْدًا لله، فكأنه جعله مكان "أَحْمَدُ"، ونصبه على" أحمد" حتى كأنه قال: أَحْمَدُ حَمْدًا ثم أدخل الألف واللام على هذه الكلمة[36].

وقراءة الرفع أمكن من جهة اللفظ والمعنى، فأما من جهة اللفظ، فلأنّ "الحمد" اسم معرفة أخبر عنه، وأكّد هذا المعنى سيبويه في الكتاب في باب سمّاه " هذا باب يُختار فيه أن تكون المصادرُ مبتدأة مَبْنِيًا عليها ما بعدها وما أشبه المصادر من الأسماء والصفات" حيث بيّن أنّ الرفع في ( الحمد لله) مستحب، لأنه صار معرفة وهو خبر، فقوي في الابتداء، فإذا اجتمع نكرة ومعرفة، فالأحسن أن يبتدأ بالأعرف وهو أصل الكلام[37].

وأما من جهة المعنى، فإن رفع (الحمد) يدل على أن حمد القائل وحمد غيره لله عز وجل، وفي قراءة النصب لا يتعدى حمد القائل نفسه [38]، فكانت قراءة الرفع أمكن في المعنى، وعلى هذا أجمع عليها السبعة، لأنها تدل على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى دون تجدده وحدوثه،" فالحمد لله" بالرفع جملة اسمية تفيد الدوام والاستمرار بخلاف " الحمد لله" بالنصب، فإنها جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث.

* قال الله تعالى: چ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (البقرة:7)، قرأ القراء كلهم (غشاوة) رفعا وبالألف إلا المفضل بن محمد[39]، فإنه روى عن عاصم " وعلى أبصارهم غشاوة" نصبًا [40].

الحجة لمن رفع أنّه استأنف الكلام مبتدئا، ونوى به التقديم، وبالخبر التأخير، كأنه قال: وغشاوة على أبصارهم [41]، وأنه رأى الغشاوة لم تحمل على "ختم"، بمعنى إن الختم ليس يقع على الأبصار إنما قال تعالى: چخَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ، ثم قال: چ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ مستأنفا [42]، وإذا لم يحملها على (ختم) قطعا عنه، وإذا قطعها عن (ختم) كانت مرفوعة، إما بالظرف وإما بالابتداء[43]، وكانت هذه الجملة چ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ابتدائية ليشمل الكلام الاسنادَين: إسناد الجملة الفعليةچخَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ، وإسناد الجملة الإسمية، فيكون ذلك أقوى وأكد، لأن الجملة الفعلية تدل على التجدد والحدوث، والجملة الإسمية تدل على الثبوت، وكان تقديم الجملة الفعلية أولى، لأن فيها أن ذلك وقع وفرغ منه [44].

أما حجة من نصب(غشاوة)، فإنه أضمر مع الواو فعلا عطفه على قوله تعالى: چخَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ٱلسَّمَوَٰتِ، والتقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة[45] ثم أسقط (جعل)، إذ كان في أول الكلام ما يدل عليه، لأن معنى ختم عليه بغشاوة مثل جعل على بصره غشاوة، فجاز جمل (غشاوة) على (ختم)، وإضمار الفعل إذ كان عليه دليل كثير مستعمل في كلام العرب، ومنه قول الشاعر يصف فرسه:

عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا  حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا [46]

ومعلوم أنّ الماء يُشرب ولا يعلف به، ولكن الشاعر نصب ذلك على إتباع الكلام بعضه بعضا، وكذا قال الآخر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ في الوَغَى  مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

وقد علم أنّ الرمح لا يُتقلد به، وأن الشاعر إنما أراد: وحاملا رمحاً، ولكن لما كان معلوماً، اكتفى الشاعر بما قد ظهر من كلامه عن إظهار ما حذف منه[47].

* قال تعالى: چ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَلسَّمَٰوَٰتِ (المائدة:2).

أوضح ابن مجاهد أنه قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إِن صَدُّوكم) مكسورة وأنه قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (أَن صدّوكم) مفتوحة الألف[48].

ومعنى قوله تعالى: چ أَن صَدُّوكُمْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ :لأِنْ صَدُّوكم، فهو في موضع نصب مفعول من أجله [49] أو في موضع جرّ، لأنّ (أن) مصدرية، والتقدير: لصدّهم إيّاكم [50]، فهو تعليل الشنئان، وهي قراءة واضحة، وحجة من نصب (أن) أنّ الصد وقع من الكفّار، والمائدة آخر ما أنزل من القرآن، وقد صحّت الأخبار أنّ نزول هذه السورة الكريمة كان بعد فتح مكة، ولم يكن حينئذ بناحية مكة أحد من المشركين يُخاف أن يصدّ المؤمنين عن المسجد الحرام، فلما كان كذلك، دلَّ على أن القوم نهوا عن الاعتداء على المشركين لصدّ كان قد وقع، فهو أمر قد مضى [51]، وهو ظاهر اللفظ، ولأنَّ أكثر القراء عليه.

أما قراءة ابن كثير وأبي عمرو "إن صدّوكم" بكسر الألف، فعلى أنّ (إنْ) حرف شرط، والماضي بعده بمعنى المضارع [52].

وذكر الأخفش الأوسط أن تقديره: إن هم صدّوكم أي: إن هم فعلوا، وبيّن أنّه يجوز أن يقال: إن هم، ولم يكونوا فعلوا، وقد يقال ذلك أيضا وقد فعلوا، كأنه يحكي ما لم يكن ومنه قوله تعالى: چ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ

أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ٱلسَّمَوَٰتِ (يوسف:77)، وقد كان عندهم قد وقعت السرقة[53].

وذهب الطبري إلى أنّ القراءتين – بفتح همزة الألف وبكسرها– قراءتان معروفتان مشهورتان في قرأة الأمصار، صحيح معنى كل واحدة منهما وذلك أن النبي ﷺ صُدّ عن البيت هو وأصحابه يوم الحديبية، وأنزلت عليه سورة المائدة بعد ذلك، فمن قرأ ( أَنْ صدُّوكم) بفتح الألف من (أن) فمعناه: لا يحملنكم بغض قوم أيُّها الناس من أجل أن صدُّوكم يوم الحديبية عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم، ومن قرأ (إِنْ صَدُّوكم) بكسر الألف، فمعناه: لا يجرمنكم شنآن قوم إنْ صَدُّوكم عن المسجد الحرام إذا أردتم دخوله، لأنّ الذين حاربوا رسول الله ﷺ من قريش يوم فتح مكة قد حاولوا صَدّهم عن المسجد الحرام، فتقدم الله تعالى إلى المؤمنين– في قول من قرأ ذلك بكسر (إن)– بالنهي عن الاعتداء عليهم، إن هم صدّوهم عن المسجد الحرام قبل أن يكون ذلك من الصادين، غير أنّ الطبري بيّن أنّ المر وإن كان كذلك، فإنّ قراءة ذلك بفتح الألف أبْيَنُ معنى، لأن هذه السورة الكريمة (سورة المائدة) لا تدافع بين أهل العلم في أنها نزلت بعد يوم الحديبية، وإذا كان ذلك كذلك، فالصدّ قد كان تقدّم من المشركين، فنهى الله تعالى المؤمنين عن الاعتداء على الصادّين من أجل صدهم إياهم عن المسجد الحرام، ومعنى الآية الكريمة: ولا يحملنكم بغض قوم لأن صدُّوكم عن المسجد الحرام أيّها المؤمنون أن تعتدوا حكم الله فيهم فتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم[54].

وأنكر أبو جعفر النحاس هذه القراءة بكسر الألف، وذكر أنّها لا تجوز بإجماع النحويين إلاّ في الشعر، لأنّ (إنْ) الشرطية لا بدّ لها في جوابها من

الفاء والفعل، فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر-كما ذكر أبو جعفر النحاس- يمنعون القراءة بها لأشياء منها أنّ هذه الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان وكان المشركون صَدُّوا المؤمنين عام الحديبية سنة سِتٍّ، فالصَدُّ كان قبل الآية، وإذا قريء بالكسر لم يجز أن يكون إلا بعده، كما تقول: لا تعط فلانا شيئا إن قاتلك، فهذا لا يكون إلا للمستقبل، وإن فتحت كان للماضي فوجب على هذا ألا يجوز إلا(أن صدّوهم) [55].

كما ضعّف هذه القراءة ابن جنّي من حيث إنّها جزم بإنْ ولم يذكر لها جواب مجزوم أو الفاء، يقال: إنْ تَزُرْني أعطك درهما أو فلك درهم، وإن قيل: إن تزرني أعطيتك درهما قبح [56].

وهذا الإنكار لهذه القراءة صعب جدًّا، لأنها قراءة متواترة، إذ هي من السبعة، والمعني معها صحيح واضح والتقدير: إن وقع صدّ في المستقبل مثل ذلك الصدّ الذي كان زمن الحديبية، وهذا النهي تشريع في المستقبل [57]، كما أنه ليس نزول هذه الآية الكريمة عام الفتح مُجمعًا عليه، فقد ذكر اليزيدي أنها نزلت قبل أن يصدُّوهم، ومعناه: لا يحملنكم بعض قوم أن تعتدوا إن صدّوكم، يقول اليزيدي: إن صدّوكم فلا يحملنكم بغضهم أن تعتدوا [58]، وعلى هذا القول وما ذُكر سابقا يكون الشرط واضحا بل يدعمه ويقويه قراءة ابن مسعود: " إِنْ يَصُدُّوكم" كما يعززه قول سيبويه في الكتاب بجواز حذف الفاء في جواب الجزاء،وهذا بعدما عرض القاعدة النحوية التي مفادها أنه لا يكون جواب الجزاء إلا بفعل أو بالفاء، والشاهد على ذلك-كما بيّن سيبويه- هو قوله تعالى: چ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الروم:36)، حيث استغنى عن الفاء في الجواب، ومثاله من الشعر قول حسان بن ثابت:

مَنْ يَفْعَل الحَسَنَات الله يَشْكُرُها  و الشَرُّ بالشرِّ عِنْدَ الله مِثْلاَنِ

الشاهد في البيت حذف الفاء من الجواب للضرورة، وتقديره: فالله يشكرها ومنه قول جرير بن عبد الله البجلي:

يَا أَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ  إِنَّكَ إِنْ يُصْرَعْ أَخُوكَ تُصْرَعُ

الشاهد في هذا البيت تقديم ( تصرع) في النية مع تضمنها للجواب في المعنى، والتقدير: إنك تصرع إن يصرع أخوك، وهذا من الضرورة، لأن حرف الشرط قد جزم الأول، فحقه أن يجزم الآخر[59].

* قوله تعالى: چ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (المائدة: 71).

قرأ القراء جميعهم قوله تعالى:" ثم عَمُوا وصَمُّوا كثير منهم" برفع (كثير) من ثلاثة أوجه:

**الوجه الأول:** أن يكون مرفوعا على البدل من ضمير الفاعل في (صمّوا).

**الوجه الثاني:** أن يكون مرفوعا، لأنّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: العمى والصمّ كثير منهم.

**الوجه الثالث:** أن يكون مرفوعاً، لأنه فاعل "صَمُّوا"، والواو علامة للجمع لا ضمير على لغة: أكلوني البراغيث، فيقال في هذه اللغة: ذهبوا قومك وذهبن نسوتك، وضربوني قومك، ومنه قول أبي عمرو الهذلي أكلوني البراغيث، وكان وجه الكلام أن يقول: أكلتني البراغيث، ومنه قول الشاعر:

يَلُومُنَنِي في اشتراء النخيـ  ـل أهلي فكلّهم أَلْوَم

ومما جاء على هذه اللغة قوله تبارك وتعالى: چ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ڦ ظَلَمُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الأنبياء:3)، وقد ذكر هذه اللغة كثير من العلماء منهم الفراء[60].

وبيّن أبو حيان الأندلسي أنّ هذه اللغة قليلة فلا ينبغي أن يحمل عليها.

الوجه الرابع: أن يكون مرفوعا على أنه مبتدأ، والجملة قبله في موضوع الخبر، والتقدير: كثير منهم عموا وصمّوا، وهو ضعيف، لأنّ الفعل قد وقع في موقعة فلا ينوى به غيره[62].

* قال تعالى: چ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم ٱلسَّمَٰوَٰتِ (طه:63).

أوضح ابن مجاهد اختلاف القراء في تشديد النونين وتخفيفهما، فذكر أنه قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي (إنّ) مشددة النون (هذان) بألف خفيفة النون، وقرأ ابن كثير (إن هذانّ) بتشديد نون هذين، وتخفيف نون (إنّ)، واختلف عن عاصم فروى أبو بكر (إنّ هذان) نون (إنّ) مشدّدة، ( هذان) مثل حمزة، وروى حفص عن عاصم (إن) ساكنة النون وهي قراءة ابن كثير، و(هذان) خفيفة، وقرأ أبو عمرو وحده (إنّ) مشددة النون، ( هذّين)(63) بالياء، وعلى هذا، فقد قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي (إنّ) مشددة النون،( هذان) بألف خفيفة النون، ( لساحران)، وهي قراءة أبي جعفر والحسن وشيبة والعمش وطلحة وحميد وأيوب وخلف في اختياره وأبي عبيد وأبي حاتم وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير [64].

واختلف في تخريج هذه القراءة،فقيل: إنّ (إنّ) بمعنى (نعم)، وثبت ذلك في اللغة كما حكى الكسائي عن عاصم قال: العرب تأتي بـ (إنّ) بمعنى(نعم)[65].

وحكى سيبويه أنّ (إنّ) تأتي بمعنى ( أجل)، وعن أبيه عن علي بن أبي طالب ط قال: لا أحصي كم سمعت رسول الله ﷺ على منبره يقول: إنّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه، وإعرابه عند أهل العربية في النحو: إنّ الحمدَ لله بالنصب إلا أنّ العرب تجعل (إنّ) في معنى ( نعم)، كأنه أراد: نعم الحمد لله، وذلك أنّ خطباء الجاهلية كانت تفتتح في خطبتها بـ (نعم)، وقال الشاعر ابن القيس الرقيان في معنى نعم:

بَكَرَ العَوَاذِلُ في الصَّبُوح يَلُمْنَنِي وأَلُومَنَّهْ

ويَقُلْنَ: شَيْبٌ قَدْ عَلاَكَ، و قَدْ كَبِرْتَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ

فعلى هذا، حاز أن يكون قوله تعالى: چ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ، بمعنى: نعم، هذان لساحران [68]، وهذا القول حسن كما ذكر أبو جعفر النحاس– إلاّ أنّ فيه شيئا يخالف الأصل، وهو دخول اللام على الخبر، فيقال: نعم، زيد خارج، فلا يكاد يقع اللام هاهنا، لأنّ ذلك لا يكون إلا في شعر، وإن كان النحويون قد تكلموا في ذلك، فقالوا: اللام يُنوى بها التقديم، قال الشاعر:

أُمُّ الحُلَيس لَعَجُوز شَهْرَبَة ترضى من اللّحم بِعَظْمِ الرقبَة

وكان وجه الكلام تقديم اللام: لأُمّ الحليس عجوز، وكذلك وجه الكلام في الآية الكريمة إن حملت ( إن) على معنى: نعم هذان لساحران [69]، كما

تقول، نعم لهذان ساحران، ونعم لمحمد رسول الله، وذكر ابن خالويه أنّ من العرب مَن يُدخل لام التأكيد في خبر المبتدأ فيقول: زيد لأخوك، واعتبرها لغة مستقيمة[70].

وقِيل إنّها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دائما، وهي لغة بني الحارث بن كعب كما ذكر أبو زيد الأنصاري والكسائي والأخفش والفراء [71]، وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة [72]، يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالآلف، يقولون: جاء الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان، وأنشد الفرّاء عن بني الحارث قول الشاعر:

فَأَطْرق إِطْرَاقَ الشّجاع، ولو يَرَى مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشّجَاعُ لَصَمَمَا [73]

ثم قال: وما رأيت أفصح من هذا الأسدي، كما حكى عنهم قائل هذا الشعر: هذا خط يدا أخي بعينه، وبيّن الفرّاء أنّ هذا الاستعمال وإن كان قليلا فهو أقيس، وحجّته في ذلك أنّ العرب قالوا: مسلمون، فجعلوا الواو تابعة للضمّة، ثم قالوا: رأيت المسلمين، فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم، فلمّا رأوا أنّ الياء من الاثنين لا يمكنهم كسرُ ما قبلها وثبت مفتوحا، تركوا الألف تتبعه فقالوا: رجلان في كل حال، وقد أجمعت العرب على إثبات الألف في كلا الرجلين، في الرفع والنصب والخفض، وهما اثنان إلاّ بني كنانة فإنّهم يقولون: رأيت كلَي الرجلين ومررت بكِلَي الرجلين، وهي قبيحة قليلة، مضوا على القياس.

وذكر النّحاس [74] أنّ النّحويين القدماء يقولون إنّ الهاء ههنا مضمرة والتقدير: ( إنّه) على حذف ضمير الشأن، وخبر (إنّ) الجملة من قوله: " هذان لساحرن"، واللام في ( لساحران) داخلة على خبر المبتدأ، كما يقال: إنّه زيد منطلق، وهو قول حسن لولا دخول اللام، فضعّف هذا القول، لأنّ حذف

هذا الضمير لا يجيء إلاّ في الشعر، ولأنّ دخول اللام في الخبر شاذ، وقال الزجاج إنّ اللام لم تدخل على الخبر، لأنّ التقدير: لهما ساحران، فدخلت على المبتدأ المحذوف واستحسن هذا القول شيخه أبو العباس المبرد [75].

وذهب أبو جعفر النحاس إلى أنّ القول بأنّ هذه الآية الكريمة جاءت على لغة بعض العرب يعدّ من أحسن ما حملت عليه الآية، إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها مَن يُرتضى علمُه وصدقه وأمانته منهم: أبو زيد الأنصاري الذي ذكر أنّه إذا قال سيبويه: حدّثني مَن أثِق به، فإنما يعنيه، وأبو الخطاب الأخفش وهو رئيس من رؤساء أهل اللغة، روى عنه سيبويه وغيره، كما قوّى النحاس مذهبه ذاك بقول سيبويه:" واعلم أنّك إذا ثنّيت الواحد لحقته زيادتان، الأولى منهما حرف المدّ واللّين وهو حرف الإعراب"[76]، إذا بيّن النحاس أنّ قول سيبويه عن حرف المد واللين إنّه حرف الإعراب يُوجب أنّ الأصل أن لا يتغير قوله تعالى: چ إِنْ هَٰذَانِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ لأنه جاء على أصله ليعلم ذلك، وقد قال الله تعالى: چ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (المجادلة:19)، ولم يقل " استحاذ" ليدل على الأصل، إذ كان الأئمة قد رووها وتبيّن أنّها الأصل [77].

كما اختار أبو حيان الأندلسي في تخريج هذه القراءة القول نفسه وهو أنّ الله تعالى أنزل هذه الآية الكريمة بلغة حيّ من أحياء العرب [78].

أما قراءة ابن كثير وحفص عن عاصم (إِنْ هذانِّ) بتشديد نون (هذين) وتخفيف نون (إن) فالحجة فيه أَنَّ (إن) خفيفة من الثقيلة، فزال عملها، ورُدّ ما كان بعدها منصوبا إلى أصله، وهو المبتدأ وخبره، فلم يغيّر اللفظ ولا لحن في موافقة الخط [79]،وهي قراءة صحيحة، لأنّ قارئها أصلح الإعراب ولم يخالف الخط [80]،غير أنّ دخول اللام في الخبر يعترض حسن هذه القراءة على

مذهب سيبويه، لأنه يجعلها مخففة من الثقيلة ارتفع ما بعدها بالابتداء والخبر لنقص بنائها، فرجع ما بعدها إلى أصله.واللام-كما سبق ذكره- لا تدخل في خبر ابتداء أتى على أصله إلاّ في الشعر، وأمّا عند الكوفيين فهو حسن، لأنّهم يقدّرون (إن) الخفيفة بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إلاّ)، فتقدير الكلام عندهم: ما هذان إلاّ ساحران، ولا خلل في هذا التقدير إلاّ ما ادّعوا أنّ اللاّم تأتي بمعنى (إلاّ) وأنكر ذلك البصريون[81].

أمّا قراءة أبي عمرو (إنّ هذين) بتشديد نون ( إنّ) وبالياء في (هذين)- وهي قراءة عائشة والحسن والنخعي والجحدري والأعمش وابن جبير وابن عبيد [82]- فالحجة فيها ما روي عن عائشة ويحي بن يعمر أنّه لمّا رُفع المصحف إلى عثمان ط قال:أرى فيه لحناً ستقيمه العرب بألسنتها، فكيف جاز لعثمان ط وهو إمام أن يرى لحنا في المصحف فلا يغيّره؟ فالجواب أنّ اللحن ههنا ليس أخطاء كأن ينصب الفاعل ويرفع المفعول ونحو ذلك، وإنّما المقصود باللّحن هنا الخروج من لغة إلى لغة أخرى، من لغة قريش إلى لغة غيرها، فقول عثمان ط "أرى فيه لحناً ستقيمه العرب بألسنتها"، لم يُرد به اللّحن الذي لا يجوز البتّة، ولكنّه أراد الخروج من لغة إلى لغة أخرى، لأنّ القرآن الكريم نزل بلغة قريش لا بلغة بلحارث بن كعب، يدّل على ذلك أنّ عمر بن الخطاب ط بلغه أن ابن مسعود يقرئ الناس بلغة هذيل، إذ أقرأهم قوله تعالى: چ حَتَّىٰ حِينٍ ٱلسَّمَٰوَٰتِ (الصافات:178) (عتّى حين) بالعين، فكتب إليه: أمّا بعدُ، فإذا ورد عليك كتابي فأقرئ الناس بلغة هذا الحيّ من قريش، وكلّ قد ذهب مذهبا [83].

وقال مكي بن أبي طالب إنّ حجة من قرأ بالياء أنه أعمل (إنّ) في (هذين) فنصبه، وهو اللغة المشهورة المستعملة، لكنه خالف الخط فضعف لذلك[84].

وذكر أبو زرعة أنّ النصب في هذه القراءة بالياء جاء على لغة فصحاء العرب، وأبو عمرو مستغنٍ عن إقامة دليل على صحتها [85].

نختم هذا العمل بحقيقة مفادها أنّ القراءات القرآنية مرآة صادقة لما كانت عليه ألسنة العرب قبل الإسلام، كما تعتبر أوثق المصادر اللغوية لدراسة اللهجات العربية، فمنهج القراءات أصح مناهج النقل اللّغوي لأنّها تعتمد على التلقي والعرض وهما يكفلان صحة النقل ودقته، كما أنّ القرّاء لا يمثلون بيئاتهم اللهجية تماما، لأنّ القراءة سنة متبعة، فهي تقوم على الرواية.

ولا نقصد باللهجات العربية العاميات كما يعنيه الدارسون المحدثون حين يتصدّون لدرس اللهجات " العامية"، فالقراءات القرآنية لا تمثل شيئا من العامية، وإنّما قصدنا العناصر التي تكوّن العربية الفصحى، أو الخصائص اللهجية التي تنسب إلى قبائل بذاتها ثم دخلت الفصحى وصارت جزءا منها أي صار لها مستوى من الفصاحة يقرأ به القرآن الكريم وينظم به الشعر.

إنّ البحث في اللهجات العربية القديمة ليس بحثا في العاميات كما يسبق إلى ظن بعض الذين كتبوا في هذه اللهجات، فالهمز والتسهيل أو الفتح والإمالة مثلا ليسا من العامية في شيء وإنما هما مستوى من الفصاحة معروفان مقرران لدى القدماء الفصحاء.

**الهوامش:**

1- صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426هـ-2005م، ج2، ص344.

وقد نصّ الإمام أبو عبيد القاسم على تواتر هذا الحديث عن النبيﷺ ، ينظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تصحيح ومراجعة محمد الضّباع، دار الفكر، دت، ج1،ص12.

2- ينظر: الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل، بواعثه ومخططاته، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1387هـ- 1967م، ص 161-162.

3- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاه، 1373هـ- 1954م، ص30.

4- أثر القراءات القرآنية في الفقه الإسلامي، صبري عبد الرؤوف محمد عبد القوي، رسالة دكتوراه بإشراف محمد مصطفى شحاتة الحسيني، جامعة الأزهر، كلية الشريعة والقانون، 1403هـ-1983م، ص182.

5- النشر في القراءات العشر، ج1، ص20.

6- المُحْتَسب في تبيين شواذّ القراءات والإيضاح عنها، ابن جنّي، تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحلين النجار، القاهرة 1386هـ، ج1، ص15.

7- هو أنس بن مالك الأنصاري صاحب النبي ﷺ وخادمه، روى عنه سماعا، توفي سنة 91هـ.

8- ( لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ) (التوبة:57).

9- المُحتسب، ج1، ص 296.

10-وهي قراءة باقي القراء.

11-ينظر: معاني القرآن، الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار السرور، ج1، ص 173.

12- ينظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعـــارف، مصر 1972، ص 673.

13-ينظر: معاني القرآن، الفراء، ج3، ص 242،243.

14-ينظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، ص 539.

15-ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (سدد).

16-ينظر: السبعة في القراءات، ص 258. والنشر في القراءات العشـــر، ج2، ص 258.

17-ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، دار الكتـــب العلميـــة، ط2، بيروت، لبنان، 1418هـــ-1997، ج5، ص 207، 208.

والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق محي الدين رمضـــان، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط5، بيروت، لبنان، 1418هـــــ- 1997م، ج1، ص 434.

18-ينظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، تحقيق وشرح عبد العـــال ســـالم مكرم، دار الشروق، ط4، بيروت، لبنان، 1401هـــ-1981م، ص 141.

ومشكل إعراب القرآن، حققه ياسين محمد الســـواس، دار اليمامـــة، ط3، بيـــروت، دمشق، 1423هـــ-2002م، ص 238.

19-ينظر: جامع البيان، ج5،ص 207.

20-ينظر: الكشاف، الزمخشري، حققه محمد مرسي عامر، راجع طبعـــة الـــدكتور شعبان محمد اسماعيل، دار المصحف، ط2، القاهرة، مصر، 1397هـــ -1977م، ج2، ص69.

21- ينظر: جامع البيان، ج5، ص208، ومعاني القرآن، الأخفش الأوسط، معـــاني القرآن، حققه فائز فـــارس، ط2، الكويـــت، 1401هـــــ- 1979م، ج2، ص276،

والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ-1996م، ج6، ص 281.

22- ينظر: إعراب القرآن، ج2،ص 70.

23- ينظر: الكشاف، ج2،ص 69، البيان في غريب إعراب القرآن، ضبطه وعلق حواشيه بركات يوسف هبّود، دار الأرقم، بيروت، لبنان، دت، ج1، ص 274.

24-القراءات القرآنية وأثرها في الدرس النحوي، عفيف دمشقية، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت 1970، ص 29-30.

25-تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص 28-29.

26-ينظر: القراءات القرآنية وأثرها في الدرس النحوي، ص 20.

27-ينظر: نفسه.

28-ينظر: النشر في القراءات العشر، ج1، ص 33-34.

29-منهم الباحث ابن التواتي التواتي في رسالتة الموسومة بـ:" القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف سالم علوي، جامعة الجزائر، كلية الآداب، ديسمبر 2003، ص 65-66.

30-النشر في القراءات العشر، ج1، ص 27-28.

31- ينظر : جامع البيان، ج1، ص90، تفسير البحر المحيط، أبوحيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1413هـ-1993م، ج1،ص131.

32-الأخفش الأوسط، معاني القرآن، ج1، ص 9.

33-جامع البيان، ج1،ص 90.

34-ينظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، حققه الدكتور زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط3، بيروت، لبنان، 1409هـ، ج1، ص169، تفسير البحر المحيط، ج1، ص 131.

35-الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح محمد عبد السلام هـارون، دار الجيـل، ط1، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م، ص 329.
36-معاني القرآن، الأخفش الأوسط، ج1،ص 90.
37-الكتاب، ج1،ص 338، ينظر: إعـراب القـرآن، النحـاس، ج1، ص 169-170.
38-جامع البيان، ج1، ص 90.
39-المفضل بن محمد من أستاذة ابن مجاهد.
40-السبعة في القراء، ابن مجاهد،ص 138.

وينظر: معاني القرآن الفَراء، ج1، ص8.

41-الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ص 67.
42-معاني القرآن، الأخفش الأوسط، ج1، ص 34.
43-الحجة في علل القراءات السبع، حققه علي النّجدي ناصف والدكتور عبد الحليم نجار، والدكتور عبد الفتاح شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1403هـ-1983م، ج1، ص 231.
44-تفسير البحر المحيط، ج1، ص 133.
45-الحجة في القراءات السبع، ص 67.
46-هذا البيت بلا نسبة.
47-جامع البيان، ج1، ص 147، وانظر: الحجة في علل القـراءات السـبع، ج1، ص 231-232.
48-السبعة في القراءات، ص 242.

وينظر: حجة القراءات، أبو زرعة، حققه سعيد الأفغاني، مؤسسـة الرسـالة، ط1، بيروت، لبنان، 1394هـ-1974م، ص 220.
49-معاني القرآن، الأخفش الأوسط، ج1، ص 251.

وينظر: إعراب القرآن، النحاس، ج2، ص 5، ومشكل إعراب القرآن، ص 197.

50-الحجة في القراءات السبع، ابن خالوية، ص 129.
51-حجة القراءات، أبو زرعة، حققه وعلق حواشيه سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان، 1394هـ- 1974م، ص 220.

وينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها، ج1، ص 405.

52-الحجة في القراءات السبع، ص 129.
53-معاني القرآن، الأخفش الأوسط، ج1، ص 251.
54- تفسير جامع البيان، ج4، ص 404-405.
55- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، ج2، ص5.
56- المحتسب، ج1، ص 206.
57- ينظر: تفسير البحر المحيط، ج3، ص437.
58- حجة القراءات، ص 220، وينظر: تفسير البحر المحيط، ج3، ص437.
59- ينظر: الكتاب، ج3 من ص 63إلى ص 37( باب الجزاء).
60- ينظر: معاني القرآن، ج1، ص 316.
61- ينظر: تفسير البحر المحيط، ج3، ص 543.
62- ينظر: التبيان في إعراب القرآن، العكبري، حققه علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط2، بيروت، لبنان، 1407هـ- 1987م، ج1، ص453.
63-السبعة في القراءات، ص 419.
وينظر: حجة القراءات، ص 454، والنشر، ج2، ص 220-221.
64- ينظر: تفسير البحر المحيط، ج6، ص238.
65- ينظر: إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، ج3، ص44.
66- ينظر: الكتاب، ج4، ص162.

67- هذا البيت بلا نسبة في معنى اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، الدار النموذجية، صيدا، بيروت، 1411هـ-1991م، ج1،ص47.

68- ينظر: إعراب القرآن، النحاس، ج3،ص 43-44.

69- ينظر: حجة القراءات، ص455.

70- ينظر: إعراب القراءات السبع وعللها، ج2، ص 39-40.

71- ينظر: معاني القرآن الفراء، ج2، ص 183-184.

72- ينظر: إعراب القرآن، النحاس، ج3، ص45، وحجة القراءات، ص 454، ومشكل إعراب القرآن، ص439.

73- هذا البيت للمتلمّس الضبعي، أنظر: ديوانه، رواية الأشرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، شرح وتحقيق الدكتور محمد التّونخي بيروت، لبنان، 1988م، ص143 (وقد جاء بخفض نابيه).

74- إعراب القرآن، النحاس، ج3، ص 44.

75- ينظر: تفسير البحر المحيط، ج6، ص 238.

76- الكتاب، ج1، ص17.

77- إعراب القرآن، النحاس، ج3، ص 46-47.

78- ينظر: تفسير البحر المحيط، ج6، ص 238.

79- ينظر: الحجة في القراءات السبع، ص 242.

80- ينظر: مشكل إعراب القرآن، ص 440.

81- مشكل إعراب القرآن، ص 440، وينظر: تفسير البحر المحيط، ج6،ص 238.

82- تفسير البحر المحيط، ج6، ص238.

83- إعراب القراءات السبع وعللها، ج2، ص 38، وينظر: الحجة في القراءات السبع، ص 243.

84- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها، ج2، ص 100.

85- حجة القراءات، ص 454.